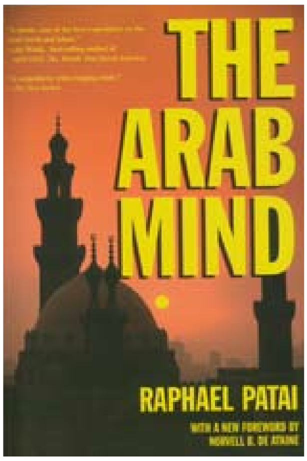

العقل العربي

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل الثاني عشر
ازدواجية اللغة، التهميش، التذبذب

تؤدي مشكلات الهامشية والتذبذب إلى آثار سلبية على الأقلية المتعلمة في العالم العربي. وبشكل عام تترافق ازدواجية اللغة مع الهامشية الثقافية، وكثيرا ما يتسبب هذان العنصران بموقف متذبذب من لغات أوروبا وثقافتها من جهة، واللغة والثقافة التقليدية العربية من جهة أخرى. وبينما ينحصر وجود هذه العناصر الثلاث؛ ازدواجية اللغة، الهامشية، والتذبذب، في الطبقات المتعلمة، والتي ما تزال صغيرة في الدول العربية، فإن أثرها يمتد إلى أبعد من هذه الطبقات ليصل إلى بقية السكان.

1. ازدواجية اللغة (Bilingualism) والشخصية

مثّل الاغتراب عن ثقافة البلد الأصلي صفة مشتركة لدى المثقفين خارج العالم الغربي في مرحلة من مراحل التاريخ. وجنبا إلى جنب مع هذا الاغتراب نما شعور بالإعجاب الشديد، وحتى الانغماس، بثقافات الغرب. وخلال ثلاثة قرون، بدءا من القرن السابع عشر، كانت اللغة الفرنسية مسيطرة على لسان النخبة في بلدان عدة شرقي فرنسا وصولا إلى روسيا. ومع حلول القرن التاسع عشر باشرت اللغة الألمانية بدور مشابه في وسط أوروبا، وإن كان هذا الدور محدودا بالمقارنة مع الفرنسية. وأينما ذهبت اللغة الفرنسية كانت الثقافة الفرنسية ترافقها جنبا إلى جنب مع الأثاث والأزياء والعادات الفرنسية، ودائما ما كان المتلقون لهذه الموجة يبدون جهلا حقيقيا أو مصطنعا بلغتهم الأم وازدراء لها وللثقافة التي تعيش فيها هذه اللغة.

وما أن أشرقت شمس القرن العشرين حتى أصبحت تلك الظاهرة شيئا من الماضي في أوروبا، واستعيض عن اللغتين الوجاهيتين، الفرنسية والألمانية، باللغات القومية

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، التهميش، التذبذب

التي برزت بسبب الميول القومية الناشئة وانبثاق حركة أدبية وصحافية تتكلم باللغات الأصلية. ولكن جاء الثلث الأخير من هذا القرن ولمّا ينعتق العالم العربي من سلطة اللغات الأجنبية.

ثمة عنصر محدد، ويرثى له في الغالب، يفسر سبب اعتماد المثقفين على اللغة الأجنبية في عدة بلدان عربية، وبالأخص في لبنان ودول شمال افريقيا. أما المثقفين العرب في الأعم فهم يتشاركون إعجابهم وحبهم للغة العربية مع أي ريفي لا يعرف القراءة والكتابة. وفي الواقع، يستأثر تقدير جمالية اللغة العربية وكافة خصائصها الخلابة الأخرى بمنزلة عظيمة لدى المثقفين العرب، وذلك على الأقل لأن المرء يجب أن يكون متعلما وذا ألفة بكنوز الأدب العربي حتى يقدر غناها بشكل كامل. ولا يزال هنالك بين المثقفين العرب من يبدي موقفا معجبا تجاه اللغة العربية تماما كما كان نبلاء روسيا يتصرفون تجاه لغتهم في القرن الثامن عشر. أما اللغة التي أغرت معظم المثقفين العرب في السابق فهي اللغة عينها التي أغرت نبلاء وسط وشرق أوروبا: الفرنسية. ولكن مع وجود فارق مهم؛ وهو أن نخبة شرق أوروبا في القرن الثامن عشر قاموا بالتماهي مع الثقافة الفرنسية بشكل كامل وتحمس شديد. فكانت اللغة الفرنسية عندهم، ودون النظر إلى قيمتها كمؤشر على الحالة التعليمية، تمثل مفتاح الولوج إلى الأسلوب الفرنسي في الحياة. ولم تكن حينها قد ظهرت التوجهات القومية البولندية أو الروسية.

تعد القومية قوة مقتدرة في الدول العربية التي تلعب فيها اللغة الفرنسية الدور السابق، حيث تعتنقها بالأخص الطبقة المثقفة التي تعتقد بتفوق اللغة الفرنسية على العربية، والتي يتقن أفرادها الفرنسية أكثر وربما يصل الحد بهم إلى الجهل بالعربية تماما، بل إن هؤلاء المثقفين العرب الناطقين بالفرنسية عادة ما يتخذون موقفا قويا معارضا لفرنسا، والغرب بشكل عام، عندما يتعلق الأمر بالتوجهات والآراء السياسية. وفي الواقع، وبالأخص في شمال افريقيا، ثمة ارتباط مباشر بين درجة الاندماج الثقافي واللغوي مع الغرب وبين حجم المشاعر المعادية للغرب. وليس للأغلبية العظمى من العرب معرفة بالغرب؛ حيث لا

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، التهميش، التذبذب

يعرفون ما هي ثقافة الغرب، ولا يتكلمون أيا من لغاته، وليس لديهم عداء تجاهه ما عدا ما يحس به معظم المتدينين من كراهية مبهمة تجاه الملحدين في الغرب. وبينما تكون هذه الأغلبية إحدى نهايتي الطيف، تشكل النخبة المستغربة نهايته الأخرى، وهي التي تسمي نفسها بالمصطلح الفرنسي «évolué» (أي الشخص الذي «تطور» من حالة متدنية من الوجود إلى حالة أرقى عبر تبني لغة فرنسا وطريقتها في الحياة)، ومن هذه المجموعة جاء معظم قادة التمرد المضاد لفرنسا في شمال افريقيا بعد الحرب العالمية الثانية.

ليس من الصعب تخيل الحصيلة النفسية التي يخلقها ذلك التذبذب، فليست هنالك إلا حالات معدودة تتفوق في أثرها على سلامة الشخصية على ما يتسبب به تبوؤ المرء منزلة التابع لثقافة خارجية بينما يمارس في الوقت نفسه كره الشعب الذي أنشأ تلك الثقافة ونقلها وتسيدها دون منازع. ومع ذلك فإن هذه الحالة هي تماما ما يجد الكثير من المثقفين العرب أنفسهم يعانون منها.

كذلك يعتبر الاعتماد اللغوي على الغرب نتيجة وتعبيرا للاعتماد الثقافي الذي تطور في فترة كانت فيها العديد من الدول العربية تحت سيطرة فرنسا وبريطانيا، حيث كانت المناطق الفرنسية الثلاث في شمال افريقيا عرضة لتأثير السياسة الاستعمارية الفرنسية الساعية إلى تعليم نخبة سكان البلاد الأصليين النطق والتفكير كالفرنسيين. وبعد الاستقلال، شهدت الدول العربية في المغرب وتونس والجزائر اندفاعا قوميا، وكان من مظاهر هذا الاندفاع: التخلص من اللغة الفرنسية كلغة تعليم في المدارس واستخدام العربية عوضا عنها، ولكن ذلك لم يطل حتى بات واضحا أن تلك الخطوة لم تكن عملية، وتمت الاستعانة بنظام تعليمي يعتمد على اللغتين كليهما. إن قصة المشكلة اللغوية في تلك الدول الثلاث طويلة ذات شجون ولها العديد من التفريعات المحلية، ولكنها تتمحور بالكامل حول مسألة أساسية واحدة، وهي: أنه مهما شاء من شاء أو أبى من أبى، فإن اللغة الفرنسية بقيت إلى يومنا هذا لغة الحداثة، وتستعمل بشكل أوسع وأشمل في المجالات الحكومية والجامعية والأدبية في الدول الثلاث.

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، التهميش، التذبذب

علاوة على ذلك، وطبقا لنظام تعليم وطني ثنائي اللغة بدأ العمل به في تونس عام 1958، تستعمل اللغة العربية في تدريس طلاب الصفين الأول والثاني من التعليم الابتدائي، ثم يبدأ تقديم اللغة الفرنسية إلى الطلاب بشكل تدريجي ويتم التشديد عليها شيئا فشيئا على حساب العربية؛ وكان أن نتج عن هذا النظام ظاهرة تمثلت بأن التونسي يزداد ميلا إلى اللغة الفرنسية كلما تلقى مزيدا من التعليم. وأكثر ما لوحظ في هذه العلاقة هو تبوؤ اللغة الفرنسية منزلة اللغة الشعبية في تونس بعد الاستقلال، وهي منزلة لم تكن تحوزها إبان الاحتلال الفرنسي. ونتيجة لذلك اتخذ قرار بتقديم اللغة الفرنسية إلى طلاب الصف الأول الابتدائي عام 1969، لكن ذلك لم يمنع أن يبقى التونسيون يعتبرون اللغة العربية لغتهم الوطنية، ووعاء للشعور الوطني التونسي؛ ولهذا يعتبر معظم التونسيين تعلم عدة عبارات عربية على الأقل أمرا يدعو للفخر، وتكفي هذه العبارة دليلا شديد الوضوح على الغربة اللغوية التي يعيشها التونسي المتعلم بعيدا عن نسيج اللغة العربية. لكن هنالك من بين القادة السياسيين التونسيين من أحس بالمسؤولية في ستينيات القرن العشرين وشعر بأن من واجبه بذل الجهود لنشر اللغة العربية في تونس على مستوى الحكومة والنخب، ولم يخرج هذا السعي عن الإدراك الدائم للدور المهم الذي تلعبه اللغة الفرنسية باعتبارها الحيز الذي يحصل ضمنه التواصل مع العالم على النطاق الأوسع.

وفي هذا المجال كانت رؤية الحزب الدستوري الاشتراكي الحاكم في تونس، وله صحيفة ناطقة بالفرنسية، تتمثل في أن اللغة الفرنسية تتيح لتونس مواصلة إيقاع التقدم من خلال فصلها إلى حد ما عن العالم الناطق بالعربية والأكثر تقليدية؛ وبالضد من هذه الرؤية شجع بعض نواب البرلمان التونسي بشدة على إزالة اللغة الفرنسية بشكل كامل من الجهازين الحكومي والتعليمي، وذلك لأنهم يعتبرون وجود الفرنسية أمرا من بقايا الاستعمار، ولأنهم يشعرون بأن التعريب عنصر مطلوب لشحن الشباب التونسي بالحس الوطني.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، التهميش، التذبذب

وفي الجزائر، جارة تونس، نجد الحكومة وهي تواجه المشكلة ذاتها وتبدي مواقف شبيهة بالمواقف التونسية. فبعد الاستقلال عام 1962، كان هنالك في البداية تصميم عام على التخلص من الفرنسية بأسرع ما يمكن، لكن هذا الحال تغير في منتصف الستينات مع إدراك أهمية استعادة الفرنسية باعتبارها قناة للتحديث، وتلا ذلك إنشاء نظام تعليمي ثنائي اللغة يعتمد على الفرنسية بشكل يتزايد مع تدرج الطالب في المراحل الدراسية. وبمجيء عام 1971، كان هنالك أكثر من مليوني طالب جزائري يتعلم الفرنسية، وهو رقم لم تقترب منه أبدا أعداد متعلمي الفرنسية يوم كانت الجزائر تعتبر جزءا لا يتجزأ من فرنسا. وكما حصل في تونس، ترافقت تلك الزيادة مع أصوات تعالت من الطبقة المثقفة، والتي يجيد أفرادها الفرنسية أكثر من العربية، تدين الآثار التغريبية للغة الفرنسية. وتجب الإشارة هنا إلى حقيقة لا يمكن إنكارها وهي التوسع المستمر للفجوة الثقافية، والتي نتجت عن استعمال لغتين، ما بين النخبة الناطقة بالفرنسية والجماهير الناطقة بالعربية.

ويمكن معرفة المدى الذي وصلت إليه سياسة الفرنسة في أجهزة الحكومة الجزائرية من خلال قراءة القانون الصادر عام 1971، والذي يوجب على كل مسؤول وموظف في الحكومة أن يجتاز امتحانا يظهر المستوى الأدنى من المعرفة باللغة العربية إذا أراد أن يحصل على ترفيع وظيفي. إن من يقرأ هذا النص دون أن يعلم بأن اللغة العربية هي اللغة الأصلية للجزائر، فسيخيل إليه بأن الحكومة التي أصدرت القانون تؤكد على أن يتقن هؤلاء لغة أجنبية، وهي اللغة العربية، إلى جانب لغتهم الأم.

وفي المغرب، أيضا، أدى البدء بتنفيذ الالتزام بالتعريب بعد الاستقلال إلى منهج ثنائي اللغة. ففي عام 1966، أعلن وزير التعليم المغربي أن عملية التعريب وصلت إلى طريق مسدود بسبب الحاجة إلى أساتذة عرب كفوئين للتعليم في المرحلتين الإعدادية والثانوية، وصدرت تعليمات رسمية بإبطاء العملية. ولاقت هذه الخطوة معارضة شديدة من حزب الاستقلال واتحاد العمال المغربي، أكبر نقابات العمال في المغرب؛ لكنها حظيت بدعم كبير من رئيس الوزراء أحمد لاراكي ووزير الشؤون الإدارية عام 1970.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، التهميش، التذبذب

هنالك مؤشرات تدل على أن التغرب الثقافي ينمو عند مستوى القرية، كما يمكن أن يعد نتيجة للتعليم ثنائي اللغة في المرحلة الابتدائية. هذه النتيجة يمكن أن تستخلص بوضوح من استطلاع أجري في قرية (تاجروين) التونسية؛ فهذه القرية تتكلم العربية العامية طبعا، وبلهجة تختلف بشكل كبير عن اللغة العربية الأدبية أو التقليدية التي تستعمل في المناهج الدراسية؛ أما الفرنسية فهي، إلى جانب تعليمها في المدارس، تخترق أجواء المنزل من خلال الراديو والتلفزيون، وتستعمل في الأفلام. وكنتيجة لهذه التأثيرات، يدرك الآباء أن معرفة اللغة الفرنسية شرط ضروري لنيل وظيفة جيدة.

يتلقى الأطفال خلال السنتين الأوليين في مدرسة القرية خمس عشرة ساعة دراسية في الأسبوع، وكلها باللغة العربية. وبدءا من الصف الثالث يتزايد عدد تلك الساعات إلى خمس وعشرين، عشر منها بالعربية والباقي بالفرنسية. ولا يتعلم الطلبة من العربية إلا الشيء اليسير بعد الصف الخامس أو السادس. ويتطلب امتحان استيعاب القراءة في الصف السادس أن يتمكن ثلث الطلبة من فهم قراءة صحيفة عربية، وأن يستطيع نصفهم المحافظة على هذه القدرة، ومعظم طلبة الأرياف لا يتابعون الدراسة بعد هذا الصف.

يعتبر الإلمام باللغة الفرنسية مفتاحا أساسيا لفتح أبواب المكانة الاجتماعية والمسؤولية السياسية التي يوفرها التعليم العالي. ومن لا يحسن الفرنسية يصنف نتيجة لذلك في طبقة أدنى. كما يتحدد النجاح في مرحلة التعليم الثانوي تبعا لأداء الطالب في اللغة الفرنسية دون العربية، وإن لم يكن هذا واقعا على صعيد درجات الطالب، فهو متحقق في إدراكه. ونتيجة لهذا: يرتبط الارتقاء في السلم الوظيفي أو التعليمي بإتقان الفرنسية لا العربية؛ ففي الجامعات لا يستطيع الطلبة الذين لا يتقنون الفرنسية أن يكملوا تعليمهم.

وفي الاستطلاع السابق نجد عددا من الاختلافات المهمة بين من يجيد الفرنسية من الطلبة ومن لا يجيدها. وهؤلاء الذين يجيدونها، وهم أقلية، لا يبدون ميلا للمشاركة في

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الأنشطة الجماعية، وينكرون وجود أي تأثير لآبائهم عليهم، وكلما كان تأثير أقربائهم أخف، كانت أداؤهم في الفرنسية أفضل. ولهذا: كلما زاد شعور الطالب بالعزلة، ارتفعت معدلاته في امتحانات القراءة والاستيعاب باللغة الفرنسية. ويجب أن نضيف هنا بأنه كلما ارتفعت المنزلة الاجتماعية الاقتصادية لأسرة الطالب، ارتفع مستوى أدائه الدراسي في مجال اللغة الفرنسية. إن كل ما سبق يؤيد الافتراض القائل بأن مجيدي الفرنسية هم أعضاء معزولون في المجتمع.

ومجتمع القرية نفسه يعاني من الانقسام الثقافي الذي يتعزز من خلال السياسة التعليمية المتبعة، ولهذا الوضع عواقب أكثر خطورة. فمن المفترض أن من يحسن الفرنسية من طلاب الريف سيلتحق بالتعليم الثانوي، وربما بالجامعة بعد ذلك، لينضم بالنتيجة إلى صفوف نخبة المدينة؛ وإن صح هذا الافتراض، فإن نخبة المدينة تتزود بالتحديد من أبناء الريف الذين يشعرون بالعزلة منذ الطفولة عن بيئتهم القروية، وهي تجربة تقدم أحد العوامل الرئيسية التي تؤدي إلى تعالي النخبة المدنية على أهالي الريف. وهكذا يقوم الانشقاق، والذي نشأ بالأساس عن أعمال أولي الأمر في المدينة، بالمساهمة في تعميق الفجوة الثقافية الفاصلة بين النخبة المدنية وأهالي الريف.

يمكن العثور أيضا على نمط ثان من ازدواجية اللغة في جميع أرجاء العالم العربي، وكما هو حال الازدواجية العربية-الفرنسية والعربية-الانكليزية، لهذا النمط عواقب نفسية مهمة؛ وهو النمط الذي ينشأ عن التعايش ما بين العربية الفصحى ولهجاتها المحلية في كافة الدول العربية. فالفصحى تكتب بها الكتب والصحف والمجلات، وهي اللغة التي يحاول المتعلمون استعمالها في إنشاء الخطب والمحاضرات، والتي تستعمل في المسرحيات والأفلام الجادة إضافة إلى نشرات الأخبار التي تبث عبر التلفزيون والراديو. وتتصف هذه اللغة بأنها واحدة أينما توجهت، ما عدا بعض الاختلاف في نطق الحروف بين سوريا ومصر. لقد وضع القرآن أسس العربية الفصحى وقواعدها النحوية، وبقيت مفرداته دون تغيير حتى في الأدب الحديث الذي يوظف خزينا غنيا من المفردات تطور عبر مئات

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

السنين. وبفضل العربية الفصحى، أمكن للكتاب أو الصحيفة المطبوعة في جزء من العالم العربي أن يقرأ ويستوعب في باقي الأجزاء بالسهولة ذاتها التي تقرأ بها الأعمال المطبوعة محليا.

لكن، وهنا تكمن المشكلة، لا يفهم الفصحى إلا من درسها أو اكتسبها بعد ممارسة طويلة متكررة. أما الأميون، وهم أغلب سكان العالم العربي، فهم يتكلمون لهجة عامية تختلف عن الفصحى إلى حد يجعلها تبدو لغة أجنبية بالمقارنة معها. ولا حاجة للقول هنا بأن اللهجات العربية المتنوعة تختلف أيضا عن بعضها البعض إلى حد يجعلها عصية على الفهم كلما بعدت المسافة الجغرافية بين اللهجتين. وهذه الاختلافات، سواء أكانت بين الفصحى والعامية، أم بين اللهجات العامية، تحدث على كل من مستويي المفردات والنطق الذي يختلف بشدة عند اللفظة الواحدة.

إن الأميين قد لا يتمكنون من فهم نشرات الأخبار التي تبثها عاصمة الدولة التي يعيشون فيها، وربما يفهمونها بشكل جزئي. وبما أنهم غير قادرين على الكتابة أو القراءة، فلن ينزعجوا من مشكلة عجزهم من فهم الأدب العربي والصحف. إنهم يمتلكون لغتهم الخاصة التي تكفي لتلبية حاجاتهم جميعها، والتي لا يعرفون غيرها باستثناء عدة آيات من القرآن بالفصحى تجعلهم يعون وجود لغة أدبية تختلف بشدة عن لهجتهم؛ ولهذا فهم لا يعرفون شيئا عن المشاكل التقنية التي تنشأ من ازدواجية اللغة.

من الجانب الآخر، يعيش المتعلمون طيلة أيام حياتهم في عالمين تسود كل منهما لغته الخاصة: الأول عالم أسرهم وأصدقاء طفولتهم، عالم العمال وأصحاب المتاجر وأغلب الناس، وهي شريحة يخاطبها المتعلم بلهجة عامية هي اللغة الوحيدة التي يعرفونها ويعرفها عندما كان صغيرا، وهي اللغة التي يتمكن باستخدامها من أن يعبر عن نفسه بيسر، والتي يفضل استعمالها في حالات التوتر العاطفي.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، التهميش، التذبذب

أما العالم الآخر فهو عالم العربية الفصحى التي لم يكتسبها دون عناء خلال السنوات التي أمضاها في المدرسة. وحتى في صفوف المتعلمين من العرب نجد أن معرفة الفصحى تتأتى بشكل أساسي دون دافع شخصي؛ فهم يعرفونها بما يكفي لفهمها والتمتع بها والاستسلام لتأثيرها الجذاب؛ ولكنهم لا يتقنونها بما يكفي للتحدث بها بطلاقة. ناهيك عن البلاغة والتحسب من الوقوع في أي خطأ يتعارض مع قواعدها الدقيقة على مستوى النحو والأسلوب؛ ومع ذلك؛ فهم واعون دائما بوجود الفصحى، وفخورون بأي مستوى من الطلاقة يصلون إليه، ويشعرون بالانحدار عندما يستعملون العامية. ومن جهة أخرى هنالك من يحس بأنه يقوم بشيء من التصنع عندما يستخدم الفصحى بطلاقة. فالممثل عندما يقول فوق خشبة المسرح: «أنا أحبك» بالفصحى، فإنه يلجأ إلى ألفاظ وأساليب تختلف بشدة عندما يريد التعبير عن حبه خارج المسرح.

ولتعقيد الأمور أكثر، يجد الكثير من المتعلمين العرب صعوبة شديدة في الحفاظ على الجهد العقلي اللازم لاستخدام الفصحى في أية مدة من الوقت. وفي الواقع، تعتبر القراءة بصوت مرتفع المناسبة الوحيدة التي تستخدم فيها الفصحى اللفظية لمدة من الوقت. وفي الكلام المرتجل نجد خلطا للفصحى مع الكثير من خصائص العامية. بل إن هنالك من الخطباء من يتنقل ما بين الاثنتين حتى في الجملة الواحدة. وفي الخطابات الشعبية للرئيس المصري جمال عبدالناصر أمثلة معروفة عن هذا الخلط. وإحدى هذه الخطب التي تم تحليلها وفق هذه النظرية بدأت بالطريقة التقليدية، لكنها انتقلت إلى العامية بعد ثلاث جمل، ثم تحولت إلى نوع معدل من الفصحى، ثم عادت إلى التقليدية، ثم العامية، وهكذا إلى نهاية الخطبة.

ويكثر في التحاور أن يستخدم أحد الطرفين الفصحى، ويجيبه الآخر بالعامية؛ ولوحظت هذه الظاهرة في مجريات محاكمة رئيس الوزراء العراقي فاضل الجمالي في بغداد، أغسطس 1958. وهذا النوع من التحاور لا يمكن أن يحصل طبعا إلا بين طرفين يعرفان الفصحى، وإلا انقلب الموقف إلى ما يشبه القصة التي سمعتها قديما من موظف في محكمة منطقة

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

فلسطين التابعة للانتداب البريطاني؛ حيث يروى أن بدويا أحضر أمام القاضي الذي قال له بالفصحى: «أنت متهم بسرقة عشر عنزات. فهل أنت مذنب أم غير مذنب؟». فما كان من البدوي إلا أن أجابه بلهجته: «أيها القاضي! لا تتحدث معي بالانكليزية. فأنا لا أعرف غير العربية». ولم يكن الموظف الذي روى لي القصة متأكدا إن كان القاضي فهم لهجة البدوي أم لا.

إن المشكلة النفسية الناشئة عن تعايش الفصحى والعامية عند الجماهير غير المتعلمة تختلف عن مثيلتها عند النخبة المتعلمة المثقفة. فتلك الجماهير مع أنها قد لا تعرف الفصحى على الإطلاق عمليا. فإنها دائما تعلم بوجود نسخة أدبية تقليدية من العربية. وأنها نسخة لا يمكنهم التحدث بها. وأنها أرقى من لسانهم العامي. ويشار إلى الكلام الفصيح عند العرب على أنه «نحوي» أي أنه صحيح من ناحية القواعد اللغوية. كما يستعملون مصطلح «الفصحى» و«لغة المتعلمين». أما العامية فيسمونها «البسيطة». وهذه المصطلحات معروفة لدى الأمي والمتعلم وهي تتضمن معنى تقييميا؛ حيث تنتقص من قدر اللهجات وتعترف بالمنزلة العالية للعربية الفصحى أو التقليدية. وهذا يعني أن غير المتعلم. والذي لا يستطيع «التكلم بشكل صحيح». عليه أن يعتبر نفسه. وفق هذا المعيار وغيره. غريبا عن المتعلم الذي يكون بحكم العادة من ساكني المدن. والأهم أنه شخص لا يلجأ إلى الأعمال اليدوية لكسب عيشه.

من الجانب الآخر. تعاني النخبة المتعلمة من مشاكل نفسية ناشئة عن التعايش مع لغتين. إذ يعلم هؤلاء أن الفصحى أرقى من العامية. وهم مقتنعون أنهم متفوقون على نسبة 90% الباقية من السكان بإجادتهم لها. وهذا الاقتناع يقوي الانتماء للنخبة والإحساس بأن الدولة مدينة لهم بتوفير معاشهم دون تكليفهم بتلويث أيديهم بالأعمال البدنية. وفي الوقت نفسه. يجب على هؤلاء أن يقروا لأنفسهم بأنهم على الرغم من السنوات الطوال التي قضوها في تعلم الفصحى لا يزالون يشعرون بألفة أكثر مع العامية «البسيطة» التي كانت لغتهم الأم. والتي لا يزالون يستخدمونها أكثر من لغة المتعلمين

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، التهميش، التذبذب

«الجميلة» أو «الواضحة» عند التخاطب مع الزوجة والأطفال والأصدقاء المقربين. إن هذا العامل يقوم بزرع بذور الشك في نفوس هؤلاء تجاه تفوقهم على الآخرين.

وبما أن معظم المتعلمين الذين تلقوا تعليما شاملا في الفصحى قد اكتسبوا شيئا من الإلمام بلغة أوروبية فإنهم يتعرضون بالإضافة للمشاكل النفسية السابقة إلى ما ذكرناه في أول الفصل من مشاكل ازدواجية اللغة، وهكذا فإن شعورهم بالتفوق على الريفيين الأميين يفسده دوما شعور الغربة الذي يحسون به عندما يدركون في نهاية الأمر أنهم اجتهدوا لإحراز تفوق هامشي فقط في إحدى اللغات العظيمة، وأنهم لم يشاركوا إلا بشكل طفيف في إحدى ثقافات الغرب العظيمة.

2. الهامشية (Marginality)

الهامشية تعني حالة الانتماء إلى ثقافتين من دون القدرة على تحديد الانتماء الكامل لأي منهما. ويصبح الفرد «هامشيا»، بعد ولادته ضمن ثقافة معينة ينهل منها على نحو معين، إذا تعرض إلى ثقافة أخرى، وجذبته، وألفها على مستوى معين (بما في ذلك لغتها)، وبذل جهده ليصبح حاملا ماهرا لها في سعي لم يتكلل بالنجاح في معظم الحالات. ويعاني الفرد الهامشي من عجزه عن الشعور بالألفة الكاملة مع أي من الثقافتين، ويستثنى من ذلك فئة استطاعت اكتساب أفق أوسع ومناعة ضد الشعور بالتفوق القومي.

ولا شك في أن الهامشية تبلغ حدها الأقصى في ثلاث دول عربية في شمال افريقيا، وهي: المغرب والجزائر وتونس. كما توجد هذه الظاهرة إلى درجة مشابهة في لبنان، وبدرجة أقل في سوريا ومصر؛ وهذه الدول الست يقطنها حوالي ثلثا مجموع سكان العالم العربي، ويلاحظ أنها كلها كانت تحت السيطرة الفرنسية يوما ما باختلاف أمد هذه السيطرة من مجرد أعوام ثلاثة احتل فيها نابليون مصر عسكريا (1798-1801)، إلى 132 عاما من الحكم الاستعماري الفرنسي للجزائر (1830-1962). وخلال فترة سيطرة فرنسا اتبعت سياسة هدفت إلى ترغيب النخبة إلى أقصى حد ممكن باكتساب لغة فرنسا وطريقة العيش فيها.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

ومضت هذه السياسة بإصرار لا يلين حتى في الأماكن والأوقات التي لم يكونوا أصحاب السيطرة فيها عندما كانت الحكومات المحلية تمكنهم من متابعة ما دعوه «مهمة الحضارة». ولا شك في أنهم أدوا مهمتهم بشكل جيد. كما لا شك في أنهم، مع شعورهم بالتفوق القومي ثقافيا، لم يكونوا يتخيلون أبدا أن تؤدي جهودهم إلى تكوين فئة من العرب تقع على هامش الثقافتين الفرنسية والعربية كليهما وتحمل موقفا مترددا تجاههما.

إن ظاهرة هامشية العرب المتفرنسين، وبالأخص في الدول العربية شمال افريقيا، شغلت جانبا من دراسات عدد من مختصي علم الاجتماع العرب والأوروبيين والأمريكيين مما جعل الفرد المتأثر بهذه الظاهرة موصوفا بشكل جيد. وتقضي القاعدة التي توصل إليها المختصون بأن هذا الفرد عادة ما يكون شابا ينحدر من عائلة تنتمي للطبقات العليا، أو فردا عاديا أظهر بعض القدرات في صباه مما مكنه من الحصول على تعليم ثانوي، وجامعي في بعض الحالات. وبسبب التعليم الثانوي اكتسب هذا الفرد معرفة جيدة باللغة الفرنسية، واعتاد، إلى حد ما، تقاليد الفرنسيين وطريقة عيشهم وأساليب تفكيرهم؛ وهنا يؤكد الكاتب الوطني المغربي علال الفاسي، والذي لم يتلق تعليما غربيا، على أن الريفيين الذين تعلموا على الطريقة الفرنسية «كانوا في العادة أكثر قدرة على تنظيم أفكارهم وأعمالهم»، وأن «المنهج العلمي هو أحد أعظم الهدايا التي قدمتها فرنسا للمغرب». وقال مفكر وقائد وطني آخر، وهو محمد اليزيدي، أن الرجال الأربعة الذين قادوا الحركة الوطنية، إضافة إلى الفاسي، كانوا «ذوي التوجه الأكثر اتباعا للغرب من ناحية العادات المنظمة في العمل والفكر». وهنا يستنتج أحد الكتاب أن: «المدارس الفرنسية علمت المغربيين الطرائق الديكارتية في التفسير والتفكير المنظم، واكتسبوا فيها ذائقة النقد العقلي بالإضافة إلى وضوح التعبير الذي يتمتع به الفرنسيون».[1]

1) جون هالستيد (John P. Halstead): أمة تولد من جديد... أصول وقيام الحركة الوطنية المغربية (1912-1944)؛ ص135-141.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، التهميش، التذبذب

ومع ذلك، فإن طرائق التفسير والتفكير المنظم وما شابه هي مسائل متعلقة بالنشاط الفكري ولا تقع ضمن الحيز الذي تعبر الهامشية عن نفسها فيه. ويكون الفرد الهامشي هامشيا لا بسبب عجزه عن اكتساب العمليات الفكرية التابعة للثقافة التي يبتغي الاندماج فيها، ولا بسبب عجزه عن تحرير نفسه من العمليات الفكرية التابعة للثقافة التي يبتغي الانفكاك عنها، وإنما بسبب عجزه عاطفيا عن تعريف انتمائه لإحدى الثقافتين. ولا بد أن هذا الجانب من الهامشية هو ما كان في ذهن الكاتب اللبناني جورج نقاش عندما كتب: «نحن الشرقيون ذوو الثقافة الغربية نعيش حالة دائمة من الانقسام الداخلي».

وتظهر بوادر الجانب العاطفي المحتم من الهامشية في أولى سنوات الدراسة حينما يتأثر الطفل العربي بتفوق الثقافة الغربية (الفرنسية في معظم الحالات) وضرورة تعلم لغة أوروبية (الفرنسية عادة، ثم بدأت الانكليزية تأخذ مكانها) باعتبارها أداة التواصل مع العالم المتقدم. وبعد إكمال المرحلة الثانوية، يذهب شباب النخبة في دول شمال افريقيا للدراسة في فرنسا حيث تقوى تلك الانطباعات وتتحول إلى قناعات راسخة. ونتيجة لذلك كانت سبعينات القرن العشرين، وحينها كانت اللغة والثقافة الفرنسية قد فقدت مكانتها المتفوقة في العالم، تشهد ميلا عند قيادات دول شمال افريقيا للاعتقاد بأن اللغة الفرنسية يجب أن تكون لغة التواصل مع العالم المثقف، وتبرير استبقائها في عدد من النشاطات والأجهزة في دولهم بحجة أنهم سينعزلون عن العالم من دون الفرنسية.

إن الهامشية العربية تتلقى دفعا كبيرا بفضل اللغة والثقافة الفرنسية؛ فقبل تحقيق الاستقلال، كان العديد من الهامشيين العرب في دول شمال افريقيا ولبنان وسوريا قد تماهوا كليا مع الثقافة الفرنسية وهم سعيدون بذلك، ومنهم من اندمج بشكل لا رجعة عنه حينما أمكنته الفرصة. لكن الظروف جعلت هذا التماهي مستحيلا من الناحية العملية، باستثناء حالات قليلة لمن تمكن من الاستقرار في فرنسا وتداخل مع النسيج الاجتماعي هناك. أما في معظم حالات الهامشيين فكانت لغة الفرنسيين وطريقة عيشهم أمرا يعيش في الذاكرة ويلفه الحنين، فعاشت قلوبهم في فرنسا وأبدانهم في دولهم، وتوجهوا

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

بالكامل إلى إظهار ألفتهم لفرنسا ولغتها، ورغبوا بأن يكونوا ما لم ولن يكونوه: فرنسيين. ومع أنهم اكتسبوا ومارسوا كافة مظاهر الحضارة الفرنسية: في اللغة واللباس والطعام والعرف الاجتماعي، إلا أنهم لم يكتسبوا الشعور بأنهم اندمجوا في الحياة الفرنسية بشكل حقيقي. إن «المتطور» لم يصبح فرنسيا، وإنما عربيا «متطورا».

لقد أدى مصطلح «المتطور (évolué)»، والذي ابتدعه الفرنسيون للإشارة إلى كافة مستعمراتهم البعيدة عنهم، إلى أثر شديد التدمير على الاعتداد بالنفس عند شعوب «ما وراء البحر». فالمصطلح، بما فيه من تعصب قومي شديد، مرتبط بوجهة النظر التقليدية المتبعة لنظرية التطور الثقافي التي ترى بأن الثقافة المعاصرة، والتي ينتمي إليها مؤيدو النظرية، تمثل أقصى ما يمكن أن تصل إليه الثقافة الإنسانية، وأن الثقافات الأخرى تنزل سلم التطور كلما زادت درجة اختلافها عنها. وسواء أكان ذلك مقبولا أم لا في صفوف الفرنسيين الذي قدموا يوما إلى شمال افريقيا يملؤهم الاعتزاز بـ«المهمة الحضارية» (وهي مهمة تختلف تماما في النوع، وأشد في الجهد، مما نادى به الانكليز حينها من «واجب الرجل الأبيض»)، فإن ذلك لا يدخل في مجال بحثنا. أما في ما يتعلق بالنخبة العربية فلم تكن على قدرة تمكنها من مقاومة القوة الكاملة للحضارة الفرنسية تعضدها رهبة الفاتحين، فتبنت أساليب الفرنسيين، ولهذا كان لزاما عليها أن تدفع ثمن تحولها إلى مكون «هجين ثقافيا».

إن العربي الهامشي مجبر بظروف هامشيته نفسها أن يتنقل يوميا جيئة وذهابا بين عالمين يعيش في هامشيهما. ففي المنزل؛ حيث يتحدث بالعامية المحلية مع زوجته وأطفاله، يبدي العربي الهامشي موقفا متزعما ليس غريبا على جميع أوجه الحياة في المجتمع العربي التقليدي. وإن كان يتمتع بحس الفكاهة، فستجد نكاته عنيفة قاسية، وهذه صفات تميز الفكاهة عند العربي التقليدي، وهي التي دفعت الرئيس المصري جمال عبدالناصر ليقول لملك الأردن الحسين ذات مرة: «بما أن زيارتك سرية، ماذا سيحدث إن اعتقلناك؟». وليقول له أيضا في حضور الزعيم الفلسطيني أحمد الشقيري: «يمكنك

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، التهميش، التذبذب

أن تأخذ الشقيري معك، وإن سبب لك أي مشكلة ارمه في أحد أبراجك وخلصني من المشكلة». وبينما تقابل مثل هذه النكات في المجتمع الغربي بصمت وألم لما فيها من قسوة وانعدام ذوق، كانت ردة الفعل عليها حينها أن انفجر القوم ضاحكين.

ينقسم المجتمع العربي التقليدي (كما رأينا) إلى قسمين: الرجال والنساء، وهما لا يلتقيان إلا ضمن الخصوصية التي يوفرها المنزل، وإذا ما حدث أن دخلت امرأة إلى حلقة نقاش بين رجال فسيتجاهلونها ولن يخطر على بال أحد منهم أن يجعلها تشارك في الحديث. وإذا التقى رجلان تلقيا تربية تقليدية فلن يسأل أحدهما الآخر عن حال زوجته، كما إنه يعتبر من المهين له إظهار أية علامة لعاطفة أو تقدير تجاه زوجته خارج المنزل، بما في ذلك المشي أو الجلوس معها في العلن. وقد أورد غلوب باشا حادثة تشير إلى أنه حتى أكثر المراقبين غير العرب خبرة قد لا يستطيع معرفة مدى عمق حساسية العرب في هذه القضية. فقبل يوم من إجراء استعراض عسكري، قال غلوب لأحد مساعديه: «لن أحتاج إليك في الغد، يمكنك أن تعتبر الغد يوم عطلة وتأخذ زوجتك للاستعراض، إن أحببت ذلك». فشعر المساعد بالإهانة وأجاب: «هل تعتقد بأني من النوع الذي يجلس مع النساء».[1]

ذلك الحوار جرى قبل سنوات عديدة باللغة العربية، وفي بيئة عربية اعتاد فيها حتى غلوب باشا على أن يلبس الكوفية كجزء من زيه العسكري. وفي بلد عربي في شمال افريقيا حيث لفرنسا تأثيرها القوي، قد تحصل مثل هذه المحادثة، بالفرنسية طبعا، وسيحاول المساعد شبه المتفرنس على أن يبهر قائده بأنه «متطور» بما يكفي لاتخاذ موقف تجاه زوجته يشابه الموقف الذي يتخذه القائد تجاه زوجته. ولوحظ أن الفرد الهامشي في دول شمال افريقيا عندما يمتع نفسه بصحبة رفاقه المتطورين فإن شخصيته بأكملها تتغير، على الأقل مما يمكن معرفته من تصرفاته وطباعه الخارجية. في مثل هذا الموقف، كأن يكون أحدهم في مقهى فرنسي، عندما تدخل امرأة، وبدلا من أن يتجاهلها الرجل، يبدي اهتمامه بها بطريقة متوقعة من شخص يعرف قواعد الاتيكيت الفرنسي، وتبدأ النكات

1) غلوب باشا (Sir John Bagot Glubb): غلوب باشا يحلل العقل العربي؛ ص38.

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، التهميش، التذبذب

تأخذ منحى مهذبا لا يكون الهدف منه إحراج الآخرين أو إقلاق راحتهم، وإنما إظهار «روحية» المرء وتهذيبه وقدرته على إلقاء النكات الخفيفة وتلقيها. من كل ما سبق نستنتج أن الفرد الهامشي يحاول في الواقع أن يتكيف مع صيغتين مختلفتين، ودائما متناقضتين، للسلوك، وينتج عن هذا بقاؤه غير واثق من بعض القيم الأساسية في حياته. أو أنه يصبح كما قال البرت حوراني:

> أن تكون من بلاد الشام يعني أن تعيش في عالمين أو أكثر في نفس الوقت، ودون أن تنتمي إلى أي منها؛ وأن تكون قادرا على تلبس عدة أنماط خارجية تشير إلى الانتماء إلى دولة أو دين أو ثقافة دون انتماء حقيقي. فهنا لا مجال لأن يمتلك المرء معايير لقيم خاصة به، وليس عليه أن يبدع بل يقلد، وحتى التقليد يجب أن لا يكون بصورة صحيحة، لما يتطلبه ذلك من أصالة معينة. إن المطلوب هو أن تنتمي إلى (لا مجتمع) وأن تمتلك (لا شيء) يخصك، وهذا يكشف عن نفسه من خلال الضياع والتباهي والسخرية واليأس.[1]

3. الفجوة الثقافية: النخب والجماهير

تنظر أغلبية الريفيين العرب إلى العربي المتفرنس، أو شبه المتفرنس، بازدراء، حيث يشعرون بأنه انفصل عنهم، وأن ارتباطه بالثقافة الفرنسية جعلت بينه وبين العامة هوة لا يمكن تجسيرها، ولا يستطيعون مقاومة الرغبة في كراهية أفعاله وكلامه وعاداته ومجرد وجوده. ومن جانبه يرد عليهم إقصاءهم له من خلال اقتناعه بأنه أرقى من أغلبية الناس، وأنه «متطور» على خلاف ما هم عليه.

يمكننا أن نلاحظ بشكل عام وعلى امتداد العالم العربي أن تقدم التعليم غير العربي في صفوف النخبة يؤدي إلى ازدياد حجم الهوة بين النخبة والجماهير. وليس هذا الوضع جديدا، ففي السابق كانت هنالك مسافة معينة ما بين الطبقة العليا والطبقة السفلى

1) البرت حوراني: سوريا ولبنان؛ ص70-72.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، التهميش، التذبذب

عند العرب. لكن الهوة المعاصرة التي نتكلم عنها هي من نوع يتواجد في مواضع كثيرة بين من يتمتع بأفضل ما يمكن لثقافته أن توفره له، ومن ينبغي عليه تحمل التنوع ضمن ثقافة واحدة يسميها اوسكار لويس «ثقافة الفقر». فهنا يتبوأ الغني والفقير، والمتعلم والأمي، ومهما كانت المسافة بينهما، المكانة القديمة نفسها على الحدين ضمن سياق ثقافي واحد.

ومع قدوم منهج التعليم الفرنسي إلى شمال افريقيا، ومثيله الانجليزي إلى لبنان ومصر، نشأ بعد ثقافي جديد كليا؛ فمنذ ذلك الحين، ازدادت المسافة بين الغني والفقير، والمتعلم والأمي، من خلال عنصر إضافي أدى إلى عزل أحدهما عن الآخر.

إن القاسم الثقافي المشترك ما بين العربي النخبوي المتغرب ونظيره الريفي الأمي كليا أو جزئيا يكاد لا يساوي شيئا، ومع أنه يخلق فجوة ثقافية حادة بين نخبة المدن وجماهير المدينة والريف، فإنه لا يكفي لوحده لتهميش العربي الذي تلقى تعليما غربيا، ولكنه قادر على عزله بشكل كبير أو ضئيل عن بنيته الاجتماعية الراسخة وجعله يشعر بأنه غريب. ويصبح عامل الهامشية فعالا هنا عندما يُجبَر هذا الفرد على إدراك عجزه عن تحقيق التماهي الكامل مع ثقافة وقيم الغرب التي انجذب إليها. وبما أن أكثر الحالات وضوحا في هذا المجال هي حالة النخبة العربية ذات التعليم الفرنسي في شمال افريقيا، فسيكون لي تعليق عليها بالخاصة.

يعتبر «المتطورون» في شمال افريقيا نتاجا للتعليم الفرنسي؛ وهم مولعون بالثقافة الفرنسية، ومعجبون جدا بفرنسا ولغتها وأدبها وحضارتها وقيمها، وكثير منهم يعتقد بأن نظام التعليم فيها يقدم أفضل تدريب إنساني في العالم، ويحمل التعبير الأسمى للثقافة الإنسانية الغربية. ويبدو الموقف الذي يشير إلى نجاح فرنسا في تلقين «المتطورين» بشكل جلي في مقالة تحت عنوان «فرنسا... إنها أنا» كتبها فرحات عباس في صحيفته

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

(الاتفاق L› Entente) في 23 فبراير 1936، وفيها كتب عباس الذي أصبح رئيس المجلس الوطني الجزائري في ما بعد:

> ليس هنالك ما يمكن أن يدعى أرض الأجداد في الجزائر... لقد عجزت عن اكتشافها. وتفحصت تاريخ الجزائر، وسألت الأحياء والأموات، ومشيت في المقابر فلم يحدثني أحد عنها... إننا أبناء عالم جديد صنعه عقل فرنسا وطاقتها.

لكنه، وفي خطاب ألقاه في المجلس الوطني الفرنسي بعد عشر سنوات من كتابة المقال، اعترف صراحة بأنه غير رأيه حول مسألة الوطنية الجزائرية، فقال:

> الشخصية الجزائرية... أرض الأجداد الجزائرية، والتي لم أتمكن من اكتشافها بين الجماهير المسلمة عام 1936، قد اكتشفتها اليوم...

وفي عشية الاستقلال أعلن وطنيته الكاملة، وعبّر عن رفضه للاستعمار لأنه «يمنعنا من تعلم لغتنا الخاصة بنا» وقام بتدمير «ثقافتنا الوطنية».

وبالرغم من أن حالة فرحات عباس ليست مثالا نموذجيا على الهامشية لأنها تبدي تغيرا حادا من الالتزام الكامل بالثقافة الفرنسية إلى الاعتراف الكامل بالوطنية الجزائرية، فإن هذا المثال يرسم لنا صورة لازدواج التوجه عند «المتطور». وعندما كانت فرنسا لا تزال تسيطر على شمال افريقيا، كان الكثير من «المتطورين» يرغبون في الواقع بأن يصبحوا فرنسيين كالفرنسيين الحقيقيين، ولكنهم لم يتمكنوا من تحقيق هذه الرغبة لأنهم لم يكونوا قادرين على فصل أنفسهم بشكل كامل عن الثقافة العربية التقليدية التي تلقوها في طفولتهم، ولأنهم ببساطة لم يكونوا قادرين على أن يكونوا فرنسيين بينما هم يعيشون على أرض عربية. ومنذ استقلال دول شمال افريقيا، وهو استقلال لعب «المتطور» دورا أساسيا فيه، كان للحماس الوطني الذي تحقق خلال ذلك أثر نفسي يمنع أي جزائري أو مغربي أو تونسي أصيل من أن يرغب بأن يصبح فرنسيا. وحتى هؤلاء الأكثر «تطورا».

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، التهميش، التذبذب

ممن حصلوا على شهادات من فرنسا أو تماهوا مع ثقافتها، أصبحوا أكثر قربا من الوطنية الجزائرية أو المغربية أو التونسية بديلا عن التفكير بأن يصبحوا فرنسيين.

ومع ذلك، فهذا لا يعني أن «المتطور» يسعى لإحداث تغير جذري في موقفه من الثقافة الفرنسية، أو أنه قادر على ذلك، بل إن إعجابه بها سيستمر، وسيكون عليه أن يجد طريقة يتدبر بها شؤونه مع الوضع الجديد الذي يكون عليه بموجبه أن يكون شديد الانتقاد لما فعله الفرنسيون ببلاده باسم الثقافة ذاتها التي يشعر بالإعجاب تجاهها وربما يشارك فيها. وهكذا يكون «المتطور» الجديد ضد فرنسا على الصعيد السياسي في العادة، ومؤيدا لثقافتها على الصعيد الثقافي، أو أنه، بمصطلح أكثر عمومية، يعارض الغرب سياسيا ويؤيده ثقافيا.

لكن «المتطور» يبدي موقفا معكوسا حينما يتعلق الأمر بعلاقته مع بلده. فبشكل عام يمكن القول أن العربي المتغرب شديد الحماسة لبلده؛ فهو يعلن، مثلا، تأييده الكامل لصراع بلده ضد إسرائيل والغرب والاتحاد السوفييتي والامبريالية والدول العربية الأخرى... لكنه لا يستطيع أن ينسجم ثقافيا مع بلده وأغلبية السكان فيه، فبعد أن ذاق طعم الثقافة الغربية علقت به فأصبح لا يرى ثقافة بلده وسكانه إلا بعيون غربية، وهذه العيون بهذا الفرد لا ترى إلا ثقافة رجعية بدائية يسودها الجهل والخرافات... إنهم أناس لا يمكنه الانسجام معهم وإن رغب بذلك، ومجرد التفكير بكونه جزءا منهم يشعره بالتفاهة والاشمئزاز.

إن ما سبق يقودنا إلى ما يمكن أن يكون الميزة الأكثر تدميرا للهامشية العاطفية التي يقع فيها العديد من العرب المتعلمين في شمال افريقيا: تبني الشخصية الهامشية للصورة النمطية التي يحملها الفرنسيون عن العرب، وفي هذه الصورة يبدو العربي قذرا، كسولا، بطيئا، متمسكا بتقاليده القديمة البدائية الخرافية، وغير جدير بالثقة، غدارا،

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، التهميش، التذبذب

لا يسيطر على نفسه، تتحكم به العواطف والأهواء؛ وباختصار: العربي فرد يحتاج إلى الحماية من نفسه ومن غيره، وبالتالي يجب على الآخرين حماية أنفسهم منه.

وحتى في الدول العربية التي تعرضت للتأثير الغربي بدرجة أقل مما حدث في المغرب والجزائر وتونس، نجد هذه الصورة النمطية ومثيلاتها عن العربي الأمي متواجدة ضمن أفراد الطبقات العليا والمتوسطة، ويمكن تصور ذلك من خلال وجهات نظر المشرفين في أحد معامل النسيج المصرية الكبيرة عن العمال فيها. فهؤلاء المشرفون، وهم خمسمئة شخص، تخرجوا جميعهم من كليات التجارة المصرية، ومعظمهم عمل في السابق مراقب أو مساعد مراقب، ومع أن خمسهم تقريبا أمضى بعض الوقت خارج مصر لتلقي التعليم التقني فإن مناصبهم الوظيفية كانت على الأعم أعلى بقليل من العمال العاديين، وهم تسعة آلاف شخص، وكانت هنالك فجوة كبيرة بينهم وبين الإدارة العليا للمصنع. أما العمال العاديون فكانوا مجرد شباب دون خبرة صناعية سابقة. وكانت سياسة الشركة تقتضي توظيف الفلاحين الذين يمكن إرضاؤهم بسهولة ويشكلون قوة عاملة مطيعة سهلة الانقياد.

> إن المشرفين، كما ادعت الإدارة العليا، لا يحبون العمل اليدوي ويفضلون العمل المكتبي؛ وقدموا ملاحظات مبالغ بها حول قيمة تعليمهم في كلية التجارة،وأبدوا شعورا هائلا من التعالي على العمال الذين أشرفوا عليهم. ومن جانبهم، انتقد أعضاء في هيئة الإشراف التثاقل والكسل وانعدام التدريب عند العمال الذين يشرفون عليهم.[1]

ومع أنه لا شك في وجود عمال في المصنع تنطبق عليهم تلك الصفات، فإن انتقاد المشرفين «للعمال» بشكل عام يعتبر استعمالا حقيقيا للصور النمطية، ويبدو أن المراقبين عمدوا إلى هذه الصورة النمطية من أجل إنشاء وحماية مسافة تفصلهم

1) فريدريك هاريسون وإبراهيم عبدالقادر إبراهيم: بعض مشاكل العمل في الصناعة المصرية؛ ص118.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

كمتعلمين (ومتعلمين جزئيا في الغرب) لا ينبغي عليهم الانخراط في عمل يدوي، والعمال الذين لن يترفعوا إلى مناصب إشرافية بسبب عدم حصولهم على التعليم.

كان الحصول على تعليم في كليات التجارة امتيازا لا يتاح في السابق إلا لقلة قليلة من الشباب المصري، وهذه الحقيقة، وبالتعاضد مع تأثير خمس أقرانهم الذين تلقوا تعليما إضافيا في أوروبا، بدت كافية لوصم المراقب العادي ببعض الهامشية. أما الهامشيون الحقيقيون فكانوا أعضاء مجلس إدارة الشركة الثلاثة عشر، إذ كانوا جميعهم من خريجي الجامعات، وأغلبهم أمضى سنة أو سنتين على الأقل في أوروبا أو الولايات المتحدة يدرس على حساب الشركة، وهم قادرون على التكلم بالانكليزية، وينتمون إلى طبقة اجتماعية واحدة، ويحملون توجها مهنيا، ويكادون ينفصلون عن مرؤوسيهم الأدنين من العمال. ومن الطرق التي تؤكد بها هذه الطبقة العليا على وجود مسافة تفصلهم عن موظفي الإشراف: انتقادهم الدائم لهم وتحميلهم مسؤولية أي قصور ينتج عن العمال.[1]

وليس الفرد العربي المتعلم وحده هو الذي يقع فريسة لحالة الانقسام الداخلي المستمرة، فمن الممكن أن تقع المؤسسات بين فكي الثقافتين العربية والغربية. وكمثال على هذه الهامشية المؤسساتية نطرح حالة صحيفة المجاهد، وهي صحيفة أسبوعية ناطقة باسم جبهة التحرير الوطني التونسية؛ حيث كانت تصدر باللغة الفرنسية وحسب في بادئ الأمر، لكنها أصبحت تصدر في ما بعد بطبعتين لكل من اللغتين العربية والانكليزية بكمية بلغت 25 ألف نسخة لكل منهما، لكن النسختين كانتا تختلفان من ناحيتين: المحتوى، والتوجه السياسي وهي الناحية الأهم. فقد كانت النسخة العربية تميل إلى مناشدة الرأي العام والمشاعر ضمن أوساط القوميين العرب، أما النسخة الفرنسية فكانت تميل إلى رأي الليبراليين والراديكاليين في الغرب. وجاء في عدد 22 يونيو 1963 من النسخة الفرنسية، على سبيل المثال، إنكار لاعتبار استعمال التونسيين للغة الفرنسية

---

1) المصدر السابق: ص116، 118.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

عملا غير وطني. واحتجت الصحيفة بأن الفرنسية استُعملت كسلاح ضد فرنسا ذاتها خلال الثورة؛ وفي عدد آخر وردت إشارة إلى اللغة العربية باعتبارها «دون كيشوت آخر».

وفي المغرب نجد مثالا مشابها جدا؛ فحزب الاستقلال يتخذ موقفا شديد المعارضة لأي إبطاء في عملية تعريب التعليم والوظائف الحكومية وغير ذلك من المجالات. وهذا موقف يتماشى مع كل من الشخصية القومية للحزب وموقعه باعتباره أكبر الأحزاب المعارضة منذ 1963؛ ولكن تأييده المتحمس للتعريب الشامل لم يمنعه من رعاية الفرنسية: حيث يملك الحزب صحيفتين واسعتي الانتشار إحداهما (العالم) باللغة العربية، والأخرى (الرأي L› Opinion) بالفرنسية.

وإليك مثالا عاما آخر عن الهامشية المؤسساتية؛ وهو الاستعمال المستمر للعربية والفرنسية كليهما في التعليم في شمال افريقيا. وهو ما تمت مناقشته في موضع سابق من هذا الكتاب.

4. التذبذب (Ambivalence)

تكمن مأساة الهامشية في أن الفرد الهامشي يقع بين طرفي كماشة التذبذب المزدوج؛ فنحو الغرب، مصدر الثقافة التي يحاول أن يشارك فيها، تجده يشعر بالإعجاب والحسد، والحب والكره، ولا يستطيع مقاومة الانجذاب نحوه في نفس الوقت الذي يخافه فيه ويتوجس منه. إنه يرغب باكتساب أكثر ما يستطيع من الثقافة الغربية، وفي الوقت نفسه يريد إزالة أي نفوذ غربي من بلده بقدر الإمكان. ولا تختلف مشاعره تجاه بلده ومجتمعه في تذبذبها عن مثيلتها السابقة؛ فهو يحب بلده بغيرة وطنية، ولكنه يكره جبن شعبه؛ وهو فخور «بتراثه العربي» العظيم، ولكنه يشتكي عجز ثقافته التقليدية بحالتها التي وصلت إليه بها في أوساط الجماهير الجاهلة؛ وهو يستمتع بالبلاغة المعسولة التي تحملها اللغة العربية، ولكنه يعترف ويؤكد على عدم ملاءمتها لحمل المعاني الحديثة في مجالات التواصل والفكر والعلم والمعرفة الأكاديمية؛ وهو يتمسك بالقيم البدوية، ولكنه يتجنب أي

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، التهميش، التذبذب

اتصال شخصي بالبدوي «الأشعث الأغبر»؛ وهو يعلم أن القرويين يشكلون الركن الأساسي والعمود الفقري لاقتصاد بلاده، وربما يصدف أن يشكلوا عماد ثروته النسبية، ولكنه يمقت الفلاح «الرجعي الجاهل القذر»؛ وهو يدرك أن خلاص بلده يكمن في زيادة الإنتاجية بسبب ما تعلمه في الغرب عن قيمة العمل والكفاءة، ولكن حالته النخبوية الراسخة عميقا في النظام الهرمي لمجتمعه تبعده عن توسيخ يديه بالعمل البدني ويبقى عمله لا يخرج عن مجال الإشراف على الآخرين أو الوظائف المكتبية.

من النموذج السابق لهامشية العربي المتغرب نجد أن تذبذبه يختلف بشكل كبير عن المفهوم الفرويدي الذي يقضي بأن حظر القيام بعمل ما إنما هو فعل مُدرَك يقع في صلب أداء الوعي، بينما تكون الرغبة في أداء عمل محظور من صلاحيات اللاوعي، فلا يعلم المرء عنها شيئا.[1] وبعبارة أخرى، يعتبر فرويد أن التذبذب هو الصراع بين الانجذاب في اللاوعي والنفور في الوعي.

إن التذبذب الذي يقع المتغرب العربي فريسة له إنما هو ذو طبيعة خاصة. ففي هذه الحالة، يكون الانجذاب والنفور ضمن مجال الوعي، فالعربي يدرك مشاعره سواء أكانت إيجابية أم سلبية دون أن تكون هنالك حاجة لإدراكه الصراع الذي يخلقانه، ويميل العرب الذين يحللون هذه الظاهرة التي تصيبهم إلى إعطاء توصيف لفظي لهذا الصراع في بعض الحالات ويشتكون من الانقسام الداخلي الذي يحدثه في نفوسهم. أما الآخرون العاجزون عن تسليط الضوء على هذه المسألة فتظهر عليهم علائم الأذى الذي تتسبب به المواقف المتصارعة في تفكيرهم وأنماط سلوكهم.

ويزيد الطين بلة إذا تدخلت عوامل أخرى، فالتذبذب المقترن بالهامشية يؤدي، كما أشرنا في ما سبق، إلى مضاعفة التوترات النفسية. وهنالك صنف من التذبذب يصيب الثقافة التقليدية ومن يتبناها، وثمة صنف آخر يركز على الثقافة الجديدة ومن يحملها. ونجد عند

1) سيغموند فرويد: التوتم والتابو: ص40.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، التهميش، التذبذب

الروائي السوري اللبناني حليم بركات صورة جلية لهذا التذبذب المضاعف في شخصية رمزي، بطل روايته (عودة الطائر إلى البحر)، والذي يرتبط بعلاقة حب/كره متذبذبة تجاه وطنه والولايات المتحدة.

ومن حسن الحظ أن نسبة قليلة فقط من الشعب العربي ترزح تحت عبء التوتر والإجهاد الناجم عن هذا التذبذب المضاعف؛ فغالبية العرب يعيشون في الأرياف البعيدة عن الهيجان الذي يميز الحياة في المدينة العربية، ولا يعلمون شيئا عن محن الهامشية والتذبذب التي تكلمنا عنها، ومع ذلك لا يمكن لأبعد القرى وقبائل البدو الرعاة أن تنجو تماما من تأثيراتها. ومع قدوم الطب الوقائي والرعاية الصحية، وهذا بذاته من نتائج التغريب، تزايد عدد أطفال القرى الناجين من أمراض الطفولة التي كانت تقتلهم في السابق، وبلغ عددهم حدا يشار إليه في الغرب بمصطلح (الانفجار السكاني). وبما أن معظم القرويين لا يمكنهم إعالة أشخاص أكثر من العدد الذي كانوا يعيلونه خلال الأجيال السابقة، كان لزاما على الأطفال الفائضين الذين كادوا يبلغون أن يغادروا إلى المدينة ويتدبروا أمورهم هنالك كيفما اتفق. واعتاد هؤلاء المهاجرون على العودة إلى قراهم من وقت لآخر، ينقلون إلى أهالي القرية أنباء عما يجري في المدينة ويتركون تأثيرا خفيفا على الجو العام للقرية يقودها نحو توجهات المدينة، وهذه العودة تضاف إلى الصحف والراديو والتلفزيون كعامل أساسي لبث التأثير الحضري، فانفتحت القرية في هذا العصر على عالم المدينة بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ.

وهكذا تتغلغل قيم المدينة في القرية، ومعها تدخل قيم النخبة المتغربة، وضمن حيثيات هذه العملية لا يمكن للقرية أن تظل عاجزة عن إدراك «الفصل» الثقافي الذي تمارسه النخبة الحضرية. ففي السابق كانت المسافة الاجتماعية الهائلة بين الفلاح والباشا عصية على التغيير، وكان الفلاح يكاد لا يقترب من الباشا إلا في مناسبات نادرة ليقبل يديه ويتفهم كافة الألفاظ اللطيفة والقاسية التي يلقيها على مسامعه «سيده العظيم». ويتعلم الفلاح من خلال اللغة العامية أن هؤلاء الذين يحتلون قمة الهرم

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الاجتماعي، وهو الذي يشكل قاعدة الهرم، يمثلون أجزاء ثابتة من المجتمع ذاته تشترك في الدين والنسب والقيم.

أما اليوم فإن الفلاح أو البدوي المغربي الذي يستمع إلى مؤتمر صحفي للملك فسيجده يتحدث بلغة لا يفهمها وليس قادرا حتى على أن يعلم بأنها اللغة الفرنسية. وهذا لوحده يكفي لإحداث تقليص كبير في العامل المشترك الذي يربط بين الفلاح والصحفيين المتغربين الذين يطرحون الأسئلة باللغة الفرنسية، كما إن إدراكه أن قادته لا يتكلمون لغته بفصاحة يجعله يشعر بأنهم لا ينتمون إلى المجتمع الذي ينتمي هو إليه.

وبينما يخلق هذا الوضع شعورا بالعزلة لدى النخبة، يؤدي إلى شعور بالنقمة لدى الجماهير. وفي مجتمع كالمجتمع العربي حيث تلعب الأسرة والقرابة دورا هاما، تكون النقمة على هيمنة الغريب ذات قوة خاصة، وتميل الجماهير التقليدية إلى الشعور بالنقمة الشديدة تجاه النخبة المتغربة، وهي النقمة الشديدة ذاتها التي طالما أحس بها العرب تجاه الغرباء الذين يسيطرون على أرضهم.

وتكون هذه النقمة قوية بشكل خاص عند الطبقة العاملة في المدينة. فهؤلاء العمال، وفق المفهوم الغربي، أدى بهم دخول الأساليب الغربية إلى أن يصبحوا مؤخرا فائضا عن حاجة قراهم، كما أدى عيشهم بالقرب من الطبقات الاجتماعية العليا إلى أن يشهدوا ظاهرة التغريب عن قرب بشكل غير متاح لأهالي الريف؛ ونتيجة لذلك يبدي هؤلاء العمال موقفا متذبذبا تجاه خصائص الثقافة الغربية وقيمها، وهو موقف لا تتوفر فرصة لنموه عند الريفيين. إن أهالي الريف وفقراء المدن دائما ما كانوا يشعرون بنقمة تقليدية تجاه مظاهر الثروة والتبذير التي يبديها الأغنياء الخاملون، وتفاقمت هذه النقمة عندما أصبحت تلك المظاهر تحتوي عددا متزايدا من خصائص الثقافة الغربية التي يرفضها الرأي العام التقليدي لدى الفقراء، وفي الوقت ذاته، كان شعور بالافتتان ينمو لديهم نحو مباهج الثقافة الغربية التي كانت بعيدة عن متناول أيديهم وماثلة دائمة أمام أبصارهم. وبمعرفة هذا

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الأمر. يجب على المراقب أن ينظر إلى مجريات الأمور وفق هذا المنظور كي يفهم استعداد الطبقة العاملة في المدينة للتحول إلى حشود غاضبة تهيم في الشوارع؛ تسرق وتحرق، وتهاجم كل من يبدو غريبا عليها، وتخسر عددا من الجرحى والقتلى بيد الشرطة. ثم تخمد ثورتها بعد ساعات لتعود إلى خمودها الذي تعكر صفوه نوبات من غضب غير مؤذٍ.

5. الشخصية الازدواجية

لاحظ عدد من المفكرين والكتاب العرب المعاصرين أخطار الهامشية في الشخصية العربية وقدموا تحليلاتهم حولها. ومن هؤلاء كان الكاتب عبدالله القصيمي في كتابه (هذه هي الأغلال) المطبوع في القاهرة عام 1946. وقدم فيه تشخيصا للهامشية باستفاضة كالتي وردت في الصفحات السابقة. وبيّن أن الشخصية العربية تتجاذبها قوتان شديدتان متعاكستان. وكنا في ما سبق قد أوردنا بأن هاتين القوتين هما شعوران متعاكسان: الالتصاق بالثقافة العربية التقليدية من جهة، والانجذاب إلى الثقافة الغربية التقليدية من جهة أخرى. أما القصيمي فيرى أن هاتين القوتين هما: الرغبة بالتمسك بالطرق القديمة، أو كما يدعوها «كمال الأقدمين»، وهذا يستدعي رفضا للتقدم؛ و«التطور المتنامي لمجرى الحياة». ويصف القصيمي الفرد العالق بين هاتين القوتين بأنه يصبح «منقسما على نفسه». وهكذا لا يبدو أن القصيمي يدرك ظاهرة الهامشية عند العرب فحسب، وإنما يبدو بأنه قد أحس بالموقف المتذبذب الذي يبديه العربي الهامشي تجاه قوى التقدم، وهي التي حددها هو نفسه من قبل بأنها مستمدة من الغرب. فمن جهة يحاول القصيمي إنكار التقدم ورفض التغريب، ومن جهة أخرى، تجده متشربا بهذه التوجهات بما يكفي لجعلها قوة تجذبه بالشدة ذاتها التي تجذبه بها القوى التقليدية. وبوصوله إلى هذا التشخيص لا يتردد القصيمي في تقديم الدواء: التبني الكامل للتوجه الإنساني التقدمي، والتخلص من «التراث الساحق» للماضي، والاعتراف بأن «الوجود الإنساني بأكمله والحضارات الإنسانية كافة مؤسسة على مبدأ التنمية...».[1]

1) عبدالله القصيمي: هذه هي الأغلال: ص309.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، التهميش، التذبذب

وبعد بضع سنين من ظهور كتاب القصيمي، ظهرت في بغداد دراسة أخرى كتبها علي الوردي. وعلى الرغم من أنها جاءت تحمل عنوان (شخصية الفرد العراقي) بزعم أنها تدرس شخصية العربي العراقي بالخاصة، فإن نتائجها قابلة لأن تعمم على العرب ككل. وفي هذه الدراسة يعلق الوردي على هامشية العربي العراقي، لكنها هامشية تختلف عما ناقشناه في ما سبق. حيث يسجل الوردي أن الشخصية العراقية، والوضع النفسي للعرب عامة، تتميز بازدواجية مترسخة. ففي العراق توجد مظاهر تدل على نظامين للقيم يتنافسان على حيازة ولاء الفرد. وهما: القيم القديمة للفئات الاجتماعية المستقرة، وقيم البدو الرحل. وبينما تعلي قيم المدينة أو الاستقرار من شأن عدة صفات كالصبر وتحمل المشقات والانقياد والدهاء، فإن القيم البدوية تشدد على الشجاعة وعزة النفس والتباهي والجشع. إن هذا الانقسام البدوي-الحضري أساسي في تكوين الشخصية العراقية، ولكنه ليس الانقسام الوحيد فيها، بل هنالك عدد من ثنائيات الازدواج الأخرى: كالإبداع والمحافظة، والإخلاص والنفاق. أضف إلى ذلك النزاع بين السنة والشيعة؛ وبين التقاليد الثورية بمثلها البطولية الديمقراطية، والاتجاه الأخلاقي المعتد بنفسه، والبيئة التجارية، والجشع.

ومع أن الوردي يقدم ملاحظاته بطريقة تجعلها تبدو غير منطبقة إلا على المناطق الحضرية، فإن هامشية تلاحظ في الريف العراقي والعربي تشبه ما يذكره الوردي، ما عدا أن القرية تشدد على أهمية العمل الشاق والصبر والانقياد والدهاء، بينما تحتل قيم البداوة كالشجاعة والفخر المرتبة الثانية. وعليه، فإن هذا الخط الفاصل الخاص يمتد بين المكون البدوي والمكون الحضري. إن الهامشية بين القيم الحضرية ومثيلتها البدوية موجودة في الريف والمدينة كليهما؛ ولا تنعدم إلا في صفوف البدو الذين لا يزالون ملتزمين بقيمهم التقليدية ولم يبدؤوا باكتساب القيم الحضرية. كما ينظر أهالي المدن والأرياف جميعهم باحتقار إلى البدو لنمط عيشهم البدائي، ولكنهم يشعرون نحوهم بالإعجاب لما يتصفون به من شجاعة وعزة نفس وكرم وكرم وشرف وولاء للقبيلة... إلخ.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، التهميش، التذبذب

هشام شرابي كاتب عربي آخر مس الوتر الحساس للهامشية عند الجيل العربي الجديد الذي تقع عليه مهمة قيادة ركب المستقبل. فرأى أن المثقف العربي الشاب يستمد «إلهامه وقوته من ثقافة أخرى [غربية] لم يتلاءم تماما مع مناهجها وقيمها». ثم يمضي ليقول:

> ليس هنالك تخلٍّ عن أوروبا. وتتضح هذه الحقيقة من خلال ما يبديه هذا الجيل من ازدواجية في النفسية واللغة والثقافة. إن هذا الجيل في وضع يحتم عليه أن يحكم على نفسه ويقرر خياراته ويتصرف وفق مفاهيم وقيم غير مترسخة في تقاليده الخاصة بل في تقاليد لم يتم التلاؤم معها تماما.[1]

وهو يرى أن حل المشكلة التي نشأت عن الازدواجية النفسية واللغوية والثقافية عند هؤلاء المثقفين الشباب يكمن في تلاؤم كامل مع القيم والمفاهيم الغربية.

كما أدرك الروائيون العرب أيضا ظاهرة التذبذب وما يرافقها من أعراض باعتبارها داء مستشريا. وحول هذا يقول الروائي السوري-اللبناني حليم بركات على لسان إحدى شخصيات رواياته:

> إننا شعب فقد هويته وإحساسه بالرجولة. كل واحد منا يعاني من شخصية مزدوجة، وخاصة في لبنان. نحن عرب ومع ذلك نتلقى التعليم مرة من فرنسا، ومرة من الانغلوساكسون، ومرة من روحانيات الشرق. هذا خليط غريب جدا. علينا أن نعود لنبحث عن جذورنا. إننا جميعا مصابون بانفصام الشخصية...[2]

---

1) هشام شرابي: المواقف السياسية والفكرية للجيل العربي الشاب؛ ضمن كتاب (الشرق الأوسط العربي وافريقيا الاسلامية) للكاتب تيبور كيريكيس (Tibor Kerekes)؛ ص20، 60-61. وسيتم في الفصل السادس عشر من هذا الكتاب مناقشة ظاهرة تذبذب موقف العرب إزاء تاريخهم ذاته.

2) حليم بركات: عودة الطائر إلى البحر؛ ص55.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، التهميش، التذبذب

إن الاستخدام السطحي لمصطلحات علم النفس الغربية كـ«الشخصية المزدوجة» و«انفصام الشخصية» ومزجها مع مفاهيم تقليدية عربية كـ«الرجولة» و«الجذور» التاريخية يشير بوضوح إلى أن بطل الرواية، وربما المؤلف ذاته، يعاني حقا من الهامشية والتذبذب.

وبحسب مبادئ المدرسة الفرويدية في علم النفس، تتمثل الخطوة الأولى لتخليص المريض من التذبذب وآثاره المدمرة في أن يكون واعيا بجذوره النفسية. ومع الإلمام بأية فروق قد توجد عند المقارنة، لا يمكن لمشكلة التذبذب عند العرب أن تحل إلا إذا أصبح منشؤها النفسي معلوما عند العرب أنفسهم. ومن مؤلفات الكتاب والمفكرين العرب أمثال بركات والقصيمي نجد أن هذه الخطوة الرئيسية قد أنجزت. وما أن يصبح هذا المنهج الذي اختطه هؤلاء معلوما لدى المثقفين العرب، ومستوعبا لديهم مع ما في ذلك من صعوبة، فستكون هنالك فرصة جيدة لانحسار هذه الظاهرة تدريجيا. فما بدأ أول الأمر كصراع عاطفي يمزق الفرد في اتجاهين متعاكسين بحسب تعبير القصيمي، سيتحول عندها إلى مركب يتكون من ثقافتين، وهذا المركب ينبغي أن يفعل فعله في عقل من يحمله لخلق ترتيب ثقافي جديد يتميز بالإبداع والروعة، ومن أجل تحرير المهارات والطاقة لقدح شرارة فتوحات جديدة في مجالات عديدة من أفق التقدم الثقافي.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©